الفصل الثالث

التعامل مع النظم الاجتماعية قبل الإسلام

لقد جاء الإسلام علي نظم اجتماعية قائمة وراسخة ، حتى في الجزيرة العربية التي نشأ فيها وبزغ منها جاء علي نظام اجتماعي قائم وراسخ ، وكان عليه أن يتعامل مع تلك النظم الاجتماعية بأسلوبه الخاص وطريقته المثلى ، قبل أن يحل نظامه الاجتماعي الخاص به ويشكل النظام الاجتماعي للبلاد التي ولجها ، والتعامل مع النظم الاجتماعية القائمة الراسخة هو فن من فنون الحضارة وضرب من ضروبها ، كما أن تشكيل تلك النظم وتحويرها إلي أن تنتهي إلي الشكل المخطط له في النهج الإسلامي لهو زهرة الحضارة وقطف من أينع قطوفها ، فكيف إذن قُدّر للإسلام أن يتعامل مع النظم الاجتماعية التي سبقت وجوده ؟ يمكن متابعة ذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : منطق التحوير السلمي التدريجي .

المبحث الثاني : إبراز سمات وخصائص الإسلام .

المبحث الثالث : تشكيل النظام الاجتماعي وفق الرؤية الإسلامية .

المبحث الأول

منطق التحوير السلمي التدريجي

لم يأخذ الإسلام منذ بزوغه بأسلوب التغيير القسري العنيف والسريع في كل أموره وشئونه، حتى في أهم تلك الأمور وأكثرها حساسية وأهمية ، ألا وهي مسألة الدعوة إلي الإسلام ونشره ، بل لقد عمد الإسلام إلي اعتماد " منطق التحوير السلمي التدريجي " فيما يتعلق بالنظم الاجتماعية التي كانت سائدة قبل دخوله إلي البلاد التي فتحها ، ويرتكن هذا المنطق علي المرتكزات التالية :

أولاً : هو منطق وليس أسلوب أو طريقة :

بون شاسع بين المنطق والأسلوب أو الطريقة ، فالمنطق يقوم علي المقدمات والبديهيات ، ثم يتدرج إلي الاستقراء والاستنباط ، وينتهي إلي الاستخلاص والاستنتاج ، فهو إذن هيراركية أو تدرجية فكرية ذات محتوى أو مضمون ذهني مرتب ، يؤكد علي الإدراك والاستيعاب، ويساعد علي الاقتناع ، وربما يقود إلي الاعتقاد والاعتناق ، أما الأسلوب أو الطريقة فهي شكل من أشكال فرض الإرادة أو الرغبة دون إقامة الحجة أو الاستناد إلي المبرر ، ودون انتظار لقبول الآخر أو حتى التعبير عن رأيه ، وقد استعمل الإسلام المنطق في التعامل مع النظم الاجتماعية التي كانت قائمة في البلاد التي فتحها المسلمون ، وقد تأسس هذا المنطق علي قواعد ومبادئ سوف نوضحها في الجزئيات التالية .

ثانياً : التحوير وليس التغيير :

معلوم أن التغيير يفيد تدخل الإرادة والرغبة في الانتقال من حال إلي أخرى ، حيث تعمد تلك الإرادة إلي إزالة وإنهاء الحالة الأولى بالكلية واستبدالها بحالة أخرى ، أما

التحوير فهو يعنى الإبقاء علي عمد وأصلاب الأوضاع القائمة ، ويبدأ في الالتفاف علي القروع والأطراف، لإعادة تشكيلها ، ومنها يتحول إلي العمد والأصلاب ، حيث تكون قد تأثرت بإعادة تشكيل القروع والأطراف ، وتصبح أكثر تهيئاً واستجابةً لقبول الأوضاع الجديدة ، وقد برع الإسلام في الأخذ بمنطق التحوير ، حيث لم يعمد مطلقاً إلي الاصطدام بعمد وأصلاب النظم الاجتماعية للمناطق التي فتحها المسلمون ، بل كان يعتمد علي منطق التحوير بالشكل سابق الوصف .

ثالثاً : السلمي وليس العنيف :

لم ينطبق علي الفتوحات الإسلامية أسلوب الغزو والسيطرة والاحتلال ، ولم يحدث أن تعامل المسلمون بعنف مع النظم الاجتماعية التي فتحوا بلادها ، فأصل الدعوة الإسلامية – كما سبق الإيضاح تفصيلاً – يرتكن علي التبليغ والإخبار ، وبعد ذلك فللمتلقي الخيار في أن يؤمن أو يكفر، وما الفتح إلا لإزالة الحواجز والمعوقات التي تحول دون وصول الدعوة إلي الشعوب وعامة الناس الذين أُمر المسلمون أن يبلغونهم .

لقد كان منطق المسلمين في التعامل مع النظم الاجتماعية في البلاد التي فتحوها ووصلوا مباشرة إلي شعوبها ، عربية كانت أم أعجمية ، هو منطق الخطاب السلمي ، القائم علي الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة والمحاججة بالتي هي أحسن ، وتقديم النموذج والمثال في السلوك والفعل ، ولم يحدث أن لجأ المسلمون يوماً إلي أسلوب العنف أو الجبر والقسر في تغيير أوضاع اجتماعية معينة ، أو فرض الإسلام بالقوة علي البلاد المفتوحة .

رابعاً : التدريجي وليس الفوري :

لقد كان المسلمون علي قناعة كاملة بأن الانتصار سيكون للإسلام في نهاية المطاف ، وقد ترسخت قناعتهم استناداً إلي أكثر من دعامة ، الدعامة الأولى تأكيد الحق تبارك وتعالى

لهم بأن الإسلام هو خاتم الرسالات ، وأنه دين الناس جميعاً ، والذي لا يقبل الله غيره ، وأنه سينتشر ويسود بمشيئة الله وإرادته ، وهذا الوعد من الله لابد أن يكون نافذاً وقدراً مقدوراً ، الدعامة الثانية أن المسلمين لابد أن يسعوا بكل طاقتهم لنشر الإسلام أخذاً بالأسباب، وبأسلوب ومنطق يليق بهذا الدين ، وبالقيم والمبادئ التي جاء بها ، وجاء من أجل إقرارها ، الدعامة الثالثة أن هناك أمراً من الحق تبارك وتعالى ومن رسوله الكريم بعدم اللجوء إلي القسر أو العنف أو الإجبار في أي شأن من شئون الدين ، وهذا الأمر في مقام الفريضة التي لا يحيد عنها إلا مارقاً مخالفاً للشرع الحنيف .

وترتيباً علي ما تقدم ، لم يلجأ المسلمون في التعامل مع النظم الاجتماعية في البلاد التي فتحوها إلي أسلوب التغيير الفوري ، بل عمدوا إلي منطق التحوير التدريجي ، الذي يعتمد علي عنصر الزمن في الإقناع والاقتناع ، كعنصر حاسم ومؤثر في تشكيل النظام الاجتماعي وفق الشكل الذي يراه الإسلام .

المبحث الثاني

إبراز سمات وخصائص الإسلام

إذا كان ما تقدم هو تحليل منطق الإسلام في التعامل مع النظم الاجتماعية القائمة قبل دخول الإسلام إلي بلادها ، يبقى السؤال الآن : كيف تم وضع ذلك المنطق علي أرض الواقع كأداة من أدوات حركة الإسلام نحو تشكيل النظم الاجتماعية ، ولقد اعتمد المسلمون لتطبيق منطقهم المشار إليه علي عملية متكاملة من الترتيبات والتفاعلات الاجتماعية ، بهدف إعادة ترتيب النظام الاجتماعي ، وذلك عبر منطلقات متتابعة ، ومرتبة منطقياً ، نشير إليها فيما يلي :

أولاً : إطلاق حرية المعتقد :

المنطلق الأول والمهم في منطلقات منطق الإسلام الهادف إلي إعادة ترتيب أوضاع النظام الاجتماعي في البلاد التي فتحها المسلمون تمثل في إطلاق حرية المعتقد ، وهذا الإطلاق للحرية في الاعتقاد لم يكن قراراً سياسياً أو أمراً إدارياً اتخذه أصحاب الشأن وولاة الأمر في الإسلام، بل كان أمراً إلهياً واجب القبول والنفاذ ، بلّغه الرسول الكريم ، وأكد عليه ، ليؤمن من آمن عن قناعة ، وتقام الحجة علي من كفر دون عذر أو شفاعة .

إن المعتقد بالنسبة للإسلام هو رأس الأمر وذروة سنامه ، وقد علم الداني والقاصي أن الإسلام أنما جاء لينتشر ويتخذه الناس عقيدة لهم ، ولكن عندما يطلق المسلمون حرية الاعتقاد للشعوب والأمم التي فتحوا بلادها ففي الأمر ما ليس ببسيط أو معتاد ، لقد كانت مسألة إطلاق حرية المعتقد من أول المسائل التي استرعت انتباه الأمم والشعوب التي دخلها الإسلام، وكانت جديرة بالاعتبار والتأمل ، فقد أيقنت تلك الأمم والشعوب أن الإسلام لا يقصد غزواً أو سلباً وسيطرة ، ولا يرمي في ذات الوقت إلي إجبار أحد علي

اعتناقه بالرغم من قدرته علي ذلك ، ولم يفعل أكثر من إيصال الدعوة إلي المخاطبين بها دون حجاب أو حائل . وتمثل رد الفعل المنطقي والمباشر من تلك الأمم والشعوب في أحد سلوكين أو فيهما معاً :

❖ السلوك الأول :

الدخول في دين الله أفواجاً عن قناعة واعتناق كاملين ، والانخراط بحماس في جيوش الجهاد والدعوة .

❖ السلوك الثاني :

النظر إلي الإسلام باحترام وإكبار ، بالرغم من عدم الدخول فيه ، والتعامل معه بتعاطف واستحسان ، أثر علي وضعية المعتقدات التي تعتقدها تلك الأمم والشعوب ، بما زلزل أركانها وكاد أن يقوضها .

والأمر المهم في هذا السياق هو ما قاد إليه هذا المنطلق من انعكاسات وآثار علي عملية إعادة ترتيب النظام الاجتماعي في البلاد التي شملها الفتح الإسلامي ، فقد علا شأن الذين اختاروا الإسلام وبصفة خاصة من تقلد منهم مراكز قيادية في جيوش الجهاد وكتائب الدعوة ، وأصبح المسلمون هم الطبقة أو الفئة الأكثر فعالية وحراكية في المجتمع ، وهم بالقطع الأكثر تفضيلاً ، وتفضلاً علي غيرهم ليس لشيء إلا إعمالاً للحكم الإلهي " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وقد أعقب ذلك ترتيبات كثيرة في النظام الاجتماعي للبلاد المفتوحة ، سوف نتناولها تباعاً في الجزئيات التالية من هذا المبحث .

ثانياً : السماحة والرحابة :

كان المنطلق الثاني من منطلقات منطق الإسلام الهادف إلي إعادة ترتيب أوضاع النظام الاجتماعي في البلاد التي دخلها الإسلام يتمثل في ما أبداه الإسلام تجاه الأفراد والجماعات التي تدين بديانات أخرى من سماحة ورحابة ، فبالإضافة إلي حرية المعتقد التي أطلقها المسلمون ، أشاعوا كذلك جواً من الرحابة والسماحة فيما يتعلق بغير المسلمين من أفراد المجتمع ، فالمسلمون وغير المسلمين في حكم المواطنة سواء ، ويتمتعون بكل مزايا الانتماء إلي الدولة الإسلامية ، ولهم قوانينهم الخاصة بتنظيم أحوالهم الشخصية ، كذلك فغير المسلمين جزء من الكيان الاقتصادي والمادي للمجتمع الإسلامي ، بل كان منهم من يعّول عليهم في تحريك وتفعيل النشاط الاقتصادي للدولة الإسلامية ، وبصفة خاصة في مسائل التجارة عبر الأقاليم والأمصار ، وقد قاد ذلك إلي حدوث نوع من السيولة والسلاسة في العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين داخل المجتمع أدى إلي تفاعل واندماج علي المستوى الاقتصادي والمادي ، وكان لما تقدم أثره البليغ في إعادة ترتيب النظام الاجتماعي في البلاد التي دخلها الإسلام ، فقد تكونت شرائح اجتماعية تجمع بين المسلمين وغير المسلمين ، وهي علي مستوى عال من التجانس والاندماج الاقتصادي والمادي ، ومثل ذلك فئات أو شرائح التجار والحرفيين وغيرهم .

ثالثاً : القيم الإسلامية :

ثم جاء المنطلق الثالث من منطلقات منطق الإسلام في إعادة ترتيب النظام الاجتماعي في البلاد التي فتحها المسلمون متجسداً في القيم الإسلامية التي نشرها الإسلام في كافة أمور الحياة، لتكون بمثابة الضوابط والمعايير التي تضبط سلوك الإنسان وتنظم حركته في الكون والمجتمع الذي يعيش فيه ، وتتنوع أنساق القيم التي نشرها الإسلام بين قيم سياسية مثل

الشورى وحق النصح والتوجيه ، وقيم اقتصادية مثل عدالة توزيع مقدرات التملك والثروة في المجتمع والتكافل والضمان الاجتماعي ، وقيم إدارية مثل الرقابة والتقويم الذاتي والقوة والأمانة والصلاحية والكفاءة ، وقيم اجتماعية مثل العدالة والمساواة والإخاء إلي غير ذلك من قيم أخرى .

وانعكس أثر الأنساق القيمية التي أدخلها المسلمون علي المجتمعات التي فتحوها علي ترتيب النظام الاجتماعي في تلك المجتمعات من خلال مظهرين :

❖ المظهر الأول :

أدت القيم الإسلامية إلي إعجاب وانبهار أفراد تلك المجتمعات ، حيث سارعت أفواج منها إلي الدخول في دين الله ، لتنعم بمتعة الانتظام في مجتمع المتقين الذي راقبوه عن كثب ، وقد أدى ذلك إلي اختلاط واندماج مؤثر وفعال بين الأعراق والأجناس نتيجة النسب والصهر ، مما أدى في النهاية إلي تلاشي وذوبان الأعراق والأجناس في بعضها البعض .

❖ المظهر الثاني :

أدى المظهر الأول كما أدت انساق القيم الإسلامية في ذاتها إلي التقريب بين الطبقات والفئات والشرائح في المجتمع ، وتسهيل عملية الحراك الاجتماعي والانتقال من طبقة إلي أخرى .

المبحث الثالث

تشكيل النظام الاجتماعي وفق الرؤية الإسلامية

بعد ما تقدم صار في مقدور المسلمين تشكيل النظام الاجتماعي وفق الرؤية الإسلامية ، وقامت مجتمعات إسلامية خالصة ، أو إسلامية تضم في ثناياها أبناء ديانات أخرى ، كانت بمثابة عناصر ومقومات للحضارة الإسلامية الزاهرة ، وذلك ما سوف نوضحه في الفصل الخامس من هذا الجزء .